جامعة
المنصورة
كلية الآداب

وقفات مع مقتطفات كتبها أسرى ومبعوثون في عهد السلطان إسماعيل (١٠٨٢/١١٣٩هـ- ١٦٧٢- ١٧٢٧م)

إعداد

الدكتور/ فهد بن محمد السويكت

جامعة الملك سعود

كلية الآداب/ قسم التاريخ

مجلة كلية الآداب – جامعة المنصورة
العدد الثانى و الخمسون – يناير ٢٠١٣

وقفات مع مقتطفات كتبها أسرى ومبعوثون

في عهد السلطان إسماعيل

(١٠٨٣/١١٣٩هـ- ١٦٧٢- ١٧٢٧م)

الدكتور/ فهد بن محمد السويكت

الملخـــــص:

نشطت القرصنة في عهد السلطان إسماعيل (١٦٧٢- ١٧٢٧م) ونتج عنها سقوط العديد من الأسرى الذين أمضوا فترة من الزمن في بلاد المغرب. وقد كتب هؤلاء الأسرى والمبعوثون من أجلهم تقارير ومذكرات عن تاريخ المغرب ومعاناتهم في الأسر والمفاوضات من أجل إطلاق سراحهم. ومنهم: الأسير الإسباني جوزيف دوليون والأسير الإنجليزي توماس بيللو وقنصل فرنسا في المغرب جان باتست ايستيل والأب الفرنسي نولاسك نيان.

غير أن كتاباتهم لم تكن كلها منصفة بل جاء معظمها مشوهًا للحقائق إما عمدًا أو جهلاً. في الوقت الذي ظهرت فيه كتابات أخرى تميزت بالحيادية والإنصاف.

المقدمـــة:

حكم السلطان إسماعيل المغرب خلال مدة تزيد عن نصف قرن. تخللها الكثير من الأحداث السياسية والاجتماعية المختلفة. والتي كان للسلطان أثناءها مواقف معينة يتفق معه فيها البعض في حين يخالفه الرأي في معالجتها البعض الآخر.

إن طول المدة التي حكم خلالها السلطان إسماعيل قد أفسحت المجال لكثير من البعثات الدبلوماسية والدينية للوصول إلى المغرب من أجل المفاوضات في أمور السلم والتجارة وافتداء الأسرى.

وسمحت لبعض هؤلاء الأجانب أن يقابلوا السلطان ويعيشوا لفترة معينة بالقرب منه. بل إن بعض الأسرى قد أتيحت لهم الفرصة للعيش داخل القصر السلطاني والتعرف على خباياه، فهل تجرد هؤلاء وأولئك حينما كتبوا ووصفوا ما رأوا، وذكروا الحقائق كما هي، عندما كتبوا تقاريرهم ورحلاتهم ومذكراتهم؟

سنقتصر في هذه الوقفات على ذكر بعض ما كتبه أربعة منهم من شهادات وانتقادات وأحكام واجتهادات لنتعرف على مدى تحري أصحابها وتثبتهم من صحتها حينما ذكروها. وهم:

١. جوزيف دوليون Joseph de León أسير إسباني في المغرب منذ عام ١٧٠٨–١٧٢٨م. بقي في الأسر قرابة عشرين عامًا عمل خلالها في صيانة المدافع والأسلحة مع جيوش السلطان إسماعيل.

٢. توماس بيللو Thomas Pellow أسير إنجليزي وقع في أسر المغاربة منذ سنة ١٧١٦م وبقي في الأسر أكثر من عشرين سنة ولم يغادر البلاد إلا في عام ١٧٣٨م. كان عمره حين أسر أحد عشر عامًا. أسلم وتولى مناصب قيادية هامة في دولة السلطان إسماعيل وأولاده من بعده. تمكن من العمل داخل القصر وأصبح مقربًا من السلطانة زيدانة زوجة السلطان إسماعيل ذات التأثير الأكبر

في القصر. ثم تدرج في المناصب القيادية حتى أصبح قائدًا لكتيبة من الجيش واستقر في معسكر تامسنا ومنها كان يقوم بقيادة حملات متفرقة ثم يعود. وقد تزوج امرأة من إماء السلطان وأنجب منها بنتًا وولدًا وبقي في المغرب بعد وفاة السلطان رغم محاولاته الفاشلة في الفرار ومغامراته التي كادت أن تؤدي بحياته إلى أن نجح في الفرار عام ١٧٣٨م.

٣. جان باتيست ايستيل J. B. ESTELLE قنصل فرنسا في مدينة سلا. تم تعيينه قنصلاً لبلاده في ١٩ فبراير ١٦٨٩م ولم يلتحق بوظيفته إلا في ٢٠ فبراير ١٦٩٠م وبقي فيها إلى عام ١٦٩٨م.

٤. الأب نولاسك نيان Le Pére Nolosque Néant أحد أفراد بعثة دينية فرنسية قام أفرادها بالسفر إلى المغرب من أجل افتداء الأسرى الفرنسيين ثلاث مرات: ١٧٠٤، ١٧٠٨، ١٧١٢، وكانت البعثة مكونة من ثلاثة رجال دين. تولى كتابة تلك الرحلات الأب نيان الذي أكمل الرحلات الثلاث كلها دون تخلف وكانت كتابته تحمل عدة عناوين أشهرها: Relation des voyages au Maroc des Rédempteurs de la Merci en 1704, 1708, 1712، وعرفت أكثر تحت عنوان Relation de La Merci.

يعتمد البحث في الأساس على ما ذكره هؤلاء الأربعة من قضايا تتعلق بالسلطان إسماعيل نفسه أو شعبه أو مجتمعه. ومحاولة عرضها على ميزان النقد مع الاستعانة ببعض ما ذكره المنصفون من شهادات قد تتفق أو تختلف مع ما ذكر.

أحكام دينية:

إذا كانت الدول الأوربية قد كثفت من اتصالاتها مع المغرب خلال فترة حكم السلطان إسماعيل ونجحت في إقامة علاقات معه، فإن ذلك لم يكن يدل بأي حال من الأحوال على معرفة الأوربيين ببلاد المغرب وبالمغاربة وبعاداتهم وتقاليدهم. ولهذا فإن كتابات الرحالة الأوربيين والمبعوثين الرسميين والأسرى قد امتلأت بالأخطاء

ويظهر فيها عجزهم عن معرفة المغرب على حقيقته. ويصر معظم الكتاب الأوربيين على أهمية العامل الديني بالنسبة للمغاربة في حياتهم اليومية وتصرفاتهم. وامتازت كتاباتهم بالتهويل وعدم الدقة مما أدى إلى تشويه الصورة التي كانت تصل عن طريقهم إلى أوربا عن بلاد المغرب. ولا شك أن وجود ما يقرب من ثلاثين ألف أسير أوربي في المغرب خلال حكم السلطان إسماعيل والظروف التي كانوا عليها إبان أسرهم كانت تؤثر بلا شك، بالصورة التي كان الكتاب الأوربيون والأسرى يرسمونها لأهاليهم وذويهم عن المغرب وحكومته.

لقد أسلم بعض الأسرى إما طوعًا أو –غالبًا– بالإكراه ليتخلص من سوء المعاملة وليحظى بامتيازات عديدة. لكن إسلامهم لم يشفع لهم بمعرفة جيدة للإسلام والمسلمين لذلك نجد البعض من اجتهاداتهم في فهم حقيقة الإسلام قد جانبت الصواب إما لسوء فهم من جانبهم أو تعمدًا لتشويه الصورة الصحيحة للمسلمين.

فهذا جوزيف دوليون، رغم بقاءه في الأسر لدى المغاربة، أكثر من عشرين سنة أورد فصلاً في كتابه بعنوان: "حياة محمد وتكون طائفته" مليء بالأخطاء والأهواء والتشويه ذكر من خلاله بأن المسلمين يعتقدون ويؤمنون بقرآن محمد الذي كتبه بنفسه لهم. محمد المولود من أب وثني وأم يهودية. وقرآنه أخذه من خليط من اليهودية وبعض طوائف المسيحية والوثنية. اختار ما أعجبه من هذا كله ثم أسس دينه بمساعدة من راهب مسيحي يدعى بحيرا. وحتى يقنع زوجته خديجة بأنه نبي لجأ إلى السحر ونجح في ذلك. وقد توفي هذا النبي في النهاية مسمومًا من قبل أتباعه وعمره ما بين ٣٢– ٤٠ سنة ويعتقد أتباعه بأن جسده قد صعد إلى السماء واحتفظوا بجثمانه بعض الأيام ثم دفنوه في مكة. وخلفه بعد موته علي بن أبي طالب[١].

هذه خلاصة هذا الفصل المليء بالأخطاء والتي لا تحتاج إلى كبير عناء في

(١) Joseph de león: Vie de Moulay Ism'il roi de Fés et de Maroc, Geuthner Paris, 1974, pp.35-39.

إدراك بعدها عن الحقيقة وتشويه سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام.

تحدث أيضًا عن المساجد في المغرب وظهر حديثه عنها مشوهًا غير دقيق ينم عن جهل في مكونات المساجد مثل المحراب والمنبر والمأذنة ونحو ذلك. كما تحدث عن شهر رمضان وقال بأن المغاربة يختتمونه في أول جمعة وسبت من شهر شوال وذكر بأن الصائم يمنع عليه النوم أثناء الصيام لأن ذلك يفسد صومه(١).

كل هذه الاجتهادات الدينية من جانب جوزيف دوليون تدل على بعد هؤلاء الأسرى عن فهم حقيقة الدين الإسلامي رغم أن مثل هذا الأسير لم يكن يعامل بقسوة وشدة كسائر الأسرى. وإنما تمتع بوظيفة مرموقة تتيح له التعامل، ربما، مع شريحة عليا من شرائح المجتمع.

يقول جوزيف دو ليون في معرض حديثه عن تناول بعض المشروبات الروحية في المغرب وخاصة ما يعرف باسم ماء الحياة، بأن معظم المسلمين في المغرب يتعاطون شرب الخمر مع أنه محرم(٢).

هكذا يحكم على عامة المسلمين بتناول ومعاقرة الخمر رغم أنه لم يشهد ذلك إلا مع فئة قليلة وبالخفاء خوفًا من العقاب وفي المقابل نجد T. Pellow الذي أسلم ومارس شعائر الإسلام مع المغاربة، يذكر بأن إسلامه لم يكن سوى فرارًا من تعذيب أحد أبناء السلطان له. يقول بأن السلطان إسماعيل كان متسامحًا مع بعض الأسرى والعلوج العاملين في الجيش والذين دخلوا في الإسلام في تناول ما يعرف باسم ماء الحياة وهو نوع من الخمور التي يدعون أنها تزيد في نشاطهم(٣).

نجد Pellow أكثر دقة من سابقه في قصر معاقرة الخمر مع فئة قليلة محدودة

(١) J. de León: Op. Cit, pp.42-43.
(٢) Ibid, p.67.
(٣) T. Pellow: La relation de T. Pellow au 18e Siécle, Paris, Recherch sur Les Civilistion, 1983, pp.100, 117.

كانت في السابق تتعاطى مثل هذا المشروب الذي يقتصر وجوده على أحياء اليهود.

ومع أن بيللو قد أسلم وعرف عن الدين الإسلامي بعض الشيء إلا أنه مع ذلك لم يفهم مسائل كثيرة في الدين فجاءت رواياته وتفسيراته بعيدة عن الصواب إما جهلاً أو رغبة منه في إعطاء صورة مشوهة عن المجتمع المغربي. فهو يذكر بأن المغاربة يصومون عن الأكل والشرب من طلوع الفجر حتى بزوغ النجوم. ومن لا يلتزم بذلك يقتل. وليس ممنوعًا عليهم الأكل والشرب فقط بل المضمضة والاستنشاق وشم العطور وممارسة التجارة مع النساء. أما من يتحتم عليه السفر فيسمح له بشرب قليل من الماء(١).

هكذا تنقل صورة الدين الإسلامي وشعائره مشوهة عن طريق هؤلاء الأسرى إلى الرأي العام الأوروبي. فهل بالفعل كان بيللو المسلم يمارس شعائر الدين الإسلامي بهذه الطريقة أم أنه الحقد والغل الذي ترعرع في قلوب أمثال هؤلاء فأرادوا بهذه الأساليب إعطاء صورة مغايرة عن سماحة الإسلام وأهله.

مرة أخرى يخوض مثل هؤلاء الأسرى بأحاديث واجتهادات بعيدة عن الواقع. مثل حديث بيللو عن مقابلة حكام الأقاليم للسلطان إسماعيل. فيذكر بأنهم أثناء المقابلة تكون رؤوسهم محنية إلى أسفل مائلة إلى الجنب كناية عن أن حياتهم ملكًا له وهذا الاعتقاد بسبب أنه من العائلة الشريفة المتصلة بالنبي. فهم يعتقدون بأن من يموت على يد السلطان يذهب مباشرة إلى الجنة(٢).

لا يتوقف بيللو عند هذا الحد فيما يخص الدين وأهله فهو يذكر بأن السلطان متدين جدًا ويعاقب كل من تحدث منه مخالفة للدين، غير أن تدينه ما هو إلا نفاق فرض من خلاله أوامره التي تعتبر مقدسة ويجب على الجميع طاعته واحترامه(٣).

(١) T. Pellow: Op. Cit, p.110.
(٢) Ibid, p.133.
(٣) Ibid, p.134.

كثيرة هي التفسيرات الخاطئة لهؤلاء الأسرى فيما يخص الشعائر الدينية. فحين تحدث بيللو عن العادات والتقاليد في المغرب ذكر بأنه إذا اكتشف أن يهوديًا أو نصرانيًا يمارس التجارة مع مسلم مغربي فإنه يحرق أو يعلن إسلامه! كما أن الرجل المغربي إذا مارس تجارة مع إمرأة فيلزمه أن يقوم بالغسل لجميع بدنه حتى لا يفسد ورعه. والرجال لا يسمحون للنساء بدخول المساجد حتى لا يفسدوا على المصلين خشوعهم ويفتنوهم. كما يلزم الرجل الغسل لجميع أجزاء بدنه إذا حصل ولامس خنزيرًا[١].

توماس بيللو يعلم علم اليقين من خلال إقامته الطويلة في المغرب واحتكاكه المباشر بالسلطة والمجتمع بأن غالب أعمال التجارة في المغرب وخاصة التجارة الخارجية كانت بيد اليهود وأن بعض اليهود كانوا مسؤولين عن تجارة السلطان وبعض نسائه. ومع ذلك يتجاهل هذه الأمور وينقل معلومات مغلوطة متعمدًا تشويه الحقائق. مثل قوله بأن الدين الإسلامي يحرم على المسلمين بيع القمح للنصارى[٢].

حكم خاطيء أصدره بيللو بحق السلطان إسماعيل ونسبه إلى الدين وجعل تصدير القمح إلى أوربا محرم دينيًا. لقد نسي بيللو أو تناسى أيام الأزمات والحروب والمحن وظهور الأوبئة وما يصاحب ذلك من مجاعة وارتفاع في الأسعار. وما يفعله السلطان عندما يشتد القحط وترتفع الأسعار ويلجأ التجار إلى إخفاء ما عندهم من القمح والسلع الغذائية وبالتالي بيعها بالسعر المربح. فهو لا يسمح لهم بهذا التصرف بل ينزل بالمخالفين أشد العقوبات[٣]. وإذا لزم الأمر فتح مخازن جيشه والتي تسمى أهراء وفرق محتوياتها على المتضررين ليساهم في تخفيف العبء عن كاهل مواطنيه[٤]. ففي مثل هذه الأزمات من الطبيعي منع بيع وتصدير القمح للأجانب

(١) Ibid, pp.181-182.
(٢) T. Pellow: Op. Cit, p.183.
(٣) J. de León: Op. Cit, p.49.
(٤) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦م، ١٠٢/٧.

وليس تحريمه.

أعتاد بيللو أن يسمي المسجد بالكنيسة فيذكر بهذا الصدد بأن المغاربة ينادون للصلاة كل ثلاث ساعات. ويذكر عادات الجنائز وأن النساء إذا مات أزواجهن اجتمعن للنياحة وأخذن ينادين بصوت مرتفع فيما إذا كان المتوفى ينقصه شيء بعد وفاته من أكل مثل الكسكوس وغير ذلك. ويقول بأن المسلمين لا يدفنون شخصين في قبر واحد خوفًا من اختلاط عظامهما يوم القيامة.

ويتحدث عن حضور الصلاة جماعة في المساجد وأن من يتخلف عنها لمدة ثمانية أيام فعقوبته تتدرج بحيث في المرة الثالثة يحرق حيًا[١]. كل هذه الترهات التي يذكرها يراد منها تشويه صورة المغرب وأهله عند الأوربيين عامة والإنجليز خاصة.

كانت البعثات الدينية في المغرب كثيرة على عهد السلطان إسماعيل وسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية بحرية ومواساتهم للأسرى. كما استقبل في بلاطه العديد من تلك البعثات المهتمة بشؤون الأسرى وعملية افتدائهم. ومن بين هؤلاء كان الأب نيان Neant الذي أثنى على حرص المغاربة على احترام الذات الإلهية والنبوية من خلال قصة حدثت أمام عينيه عندما عمد زميل له بتمزيق ورقة مكتوب بها كتابات من الجهتين ورماها قطعًا صغيرة في الشارع وانتظر مرور أول قادم من المغاربة الذي بمجرد ما لمح المشهد جلس بصبر عجيب يجمع شتات تلك القطع ثم وضعها في فتحة بجدار خوفًا من أن يكون فيها اسم الله ورسوله فتدوسه الأقدام. ويتحسر الكاتب على ما يجرى في بلاده وعند المسيحيين عامة من عدمه احترام لمثل ذلك[٢]. وعن احترام أماكن العبادة يشدد نيان على أن المغاربة يحكمون بالموت على من يتعمد التبول بالقرب من حيطان المساجد[٣]. وهو بذلك يريد أن يبين للرأي الفرنسي مدى

(١) T. Pellow: Op. Cit, pp.183, 184, 196.
(٢) Néant: Relation de La Merci, S. I. H. M. D. F., T. VI, P. Geuthner, 1960, p.631.
(٣) Ibid, p.632.

حرص المسلمين على احترام أماكن العبادة ولا تصل عقوبة كهذه إلى الإعدام. لكن مثل هؤلاء يعتمدون على السماع من عامة الناس دون أن يشهدوا أحداثًا كهذه. وهكذا وقع نيان مثل بيللو في نفس الخطأ عندما ذكر بأن الدين يحرم على المغاربة تصدير القمح إلى بلاد المسيحيين(١).

ليس غريبًا ولا مستغربًا على رجل ينتمي إلى عالم الكنيسة الكاثوليكية أن يشكك في وجود النبي محمد وأن يسميه بالنبي المزعوم. وهذا بسبب عداواتهم كرجال كنيسة للإسلام والمسلمين(٢).

ويمضي هذا القسيس في تعمد الإساءة إلى الدين الإسلامي وأهله فيذكر بأن تغسيل الأموات عند المسلمين هو من أجل تخليصهم من خطاياهم كما هو في اعتقاد المغاربة(٣). ولا شك بأن هذا استنتاج بعيد عن الصواب من جانب نيان الذي يحرص في كل مناسبة على تشويه الحقائق واستثارة الرأي العام الأوربي ضد المسلمين عامة والمغاربة خاصة. فهو في مذكراته يستغرب هو ورفاق بعثته من حسن معاملة المغاربة للأجانب وخاصة معاملة بعض سكان مدينة سلا للبعثة أثناء عودتهم من مكناس في عام ١٧٠٨م ويقول بأن تلك المعاملة هي استثناء منهم لأن الدين الإسلامي يحرم على أتباعه معاملة النصارى معاملة حسنة ولائقة(٤).

كانت هذه القصة عندما فشلت مهمة البعثة في تحرير الأسرى الفرنسيين وكان أفرادها قد امتلأت قلوبهم ضغينة على حكومة المغرب حيث لم يتحقق لهم الهدف الذي جاءوا من أجله. ولذلك يحاول مثل هؤلاء الكتاب إلصاق التهم بالإسلام وأتباعه.

أما إيستيل قنصل فرنسا في سلا فقد امتلأ قلبه حقدًا وكرهًا للمغرب وسلطانها وأهلها وامتلأت تقاريره إلى حكومته بالتحريض وتشويه صورة المغرب والتجسس على

(١) Ibid, p.642.
(٢) Ibid, p.651.
(٣) Ibid, p.670.
(٤) Ibid, p.726.

البلاد وأهلها الذين يصفهم دائمًا بالبرابرة ويصف السلطان إسماعيل بأوصاف تتسم بالوحشية. فنجده مثلاً يبدي أسفه وندمه على أحد الشبان الفرنسيين من غير الأسرى الذي وصل إلى المغرب بإرادته وأعلن إسلامه رغم كل مناشدات إيستيل له بالعدول عن ذلك.

ويتحدث بكل مرارة وأسف عن احتفال أهل مدينة سلا بهذا الشاب وتكريمه الأمر الذي أغاض جميع الفرنسيين التجار في تلك المدينة(١).

كما ينتقد إيستيل حكم القصاص الذي صدر بحق من تمالؤا على قتل السلطان إسماعيل في عام ١٦٩٨م وحاولوا اغتياله. ويسخر في تقريره من الحكم قائلاً: هذا حكم العدالة في بلاد البربر حيث يقتل البريء مع المجرم(٢). تجاهل هذا الجاسوس حقيقة أن ذلك هو حكم الإسلام وليس حكم البربر، كما يزعم، في الذين يفسدون في الأرض. لكنه الحقد الأعمى الذي يكتنزه قلب إيستيل.

(١) Mémoire de J. B. ESTELLE, S. I. H. M. D. F., T. IV. Paris, Geuthner, 1931, p.531.
(٢) Ibid, p.593.

أحكام عامة:

يكاد يتفق جميع الأسرى والمبعوثين الأجانب إلى بلاط السلطان إسماعيل على وصفه بالقسوة والجبروت والظلم والتعدي على الحقوق ومصادرة الممتلكات والتعذيب وصوروا السلطان في تقاريرهم وكتاباتهم بالظالم المستبد السريع الغضب المحب لإراقة الدماء سواء دماء شعبه أو الأجانب من الأسرى والتجار. ومع ذلك لا تخلو كتاباتهم تلك من شهادات تشير إلى عدله وإنصافه وإنسانيته.

يذكر إيستيل في تقريره الذي كتبه في مدينة سلا في ٦ ديسمبر ١٦٩٣م أن السلطان إسماعيل وبعض قادته الموثوقين لديه كان همهم الأكبر هو تكبيل مواطنيهم بأغلال الضرائب والغرامات التي تفرض عليهم تقريبًا كل يوم. وكان القادة يحرصون على تحصيل هذه الغرامات إرضاءًا لطمع وجشع سيدهم من غير رحمة أو رأفة بمواطنيهم البؤساء[١]. هكذا يظهر إيستيل شفقته ورأفته بالمواطنين ويدعي بأن الغرامات تفرض عليهم يوميًا. إيستيل لم يكن أسيرًا عانى ويلات الأسر وكان حرًا طليقًا لكن تقاريره كانت في كثير منها يتعمد فيها الإساءة للسلطان وحكومته. وعلى النقيض من ذلك نجد الأسير جوزيف دوليون الذي مكث في الأسر قرابة عشرين عامًا يذكر بأنه بالرغم من قسوة السلطان إلا أنه كان محبوبًا من شعبه الذي بكى كثيرًا لموته فكان يحكم بالعدل لدرجة أن السلام والأمن قد عم أرجاء البلاد أثناء حكمه. ومع أنه كان متعجرفًا قاتلاً إلا أن عدالته مع الجميع كانت متساوية عطوفًا على الفقراء متدين مطبق للشريعة. يخرج كل صباح من قصره ثم ينزل عن حصانه ويخلع حذائه ثم يصلي عدة ركعات ويرفع يديه سائلاً ربه أن يعينه على تطبيق العدل في حكمه[٢]. وشهادة أخرى على عدل السلطان يرويها أحد رجال الدين الفرنسيين الذي يثني على الأمن والعدالة في المغرب إلى درجة أن السلطان لا يعفو عن أي من

(١) Mémoire de J. B. ESTELLE, p.228.
(٢) J. de león: Vie de Moulay Ism'il, pp.13-14.

المجرمين إذا وقع في يده. حتى الأشياء المفقودة على قارعة الطريق لا يجرؤ أحد على أخذها إلا إذا كان يريد إعادتها إلى أصحابها. والغالب أنه يريد من الجميع عدم المساس بالمفقودات على الطرق وتركها حتى يعود إليها أصحابها[١].

كثيرة هي التناقضات في كتابات الأسرى عن السلطان إسماعيل وعن مجتمعه. فهذا بيللو يشيد تارة بالسلطان إسماعيل وبشدة ورعه وتقواه ويذكر بأنه كان يصوم أربعة أشهر في العام ثم فجأة يتحدث عن شره السلطان وقادته وحكام المقاطعات في جمع الأموال والضرائب من الناس ويدعي بأنهم يرتكبون في ذلك أبشع أنواع التعذيب لدرجة أن أهل تطوان كانوا –كما يقول– قبل عهد السلطان أصحاب تجارة رابحة وأغنياء ولكن بعد وصوله إلى السلطة أصبحوا فقراء من كثرة ما يجبى منهم من أموال[٢].

إذا كان بيللو يتحدث في مذكراته باستمرار عن الفضيلة ويمقت الظلم ويعيب على سلطان المغرب أفعالاً يعدها ظلمًا وخاصة ما يتعلق منها بجمع الأموال والضرائب، فإنه نفسه حينما واتته الفرصة فعل أكثر من ذلك حينما أقدم على بيع أحد العبيد ويدعى بوجمعة على أحد الأعراب في تافيلالت بمبلغ كبير من دوكات الذهب إضافة إلى ستين رأسًا من الغنم. وكان قد اتفق مع هذا العبد أن يهرب من صاحبه ويدخل إلى محلة السلطان التي يقودها بيللو نفسه بعد أسبوع من بيعه. وقد نفذ ذلك العبد ما تم الاتفاق عليه فوفر بيللو له الحماية ورفض مطالبة المشتري بالتعويض. ثم كرر بيللو هذا العمل أكثر من مرة باتفاق مع بوجمعة على المكر والخديعة والكذب والاحتيال[٣].

يتفق بيللو مع الآخرين فيما يخص نجاح السلطان إسماعيل في فرض الأمن في

(١) N. Néant: Relation de La Merci, p.631.
(٢) T. Pellow: Op. Cit, pp.110, 116.
(٣) Ibid, pp.124-126.

جميع أنحاء البلاد. ويؤكد أنه في بداية حكمه لم يكن باستطاعة أحد أن يسافر دون أن يكون عرضة لهجمات اللصوص وقطاع الطرق. غير أنه تمكن من فرض الأمن بحيث يستطيع الكل السفر من مكان لآخر وهو آمن في جميع مملكة السلطان الشاسعة(١).

أما الحديث عن التعذيب والقتل لسبب أو لغير سبب، فقد بالغ هؤلاء الكتاب عنه في مذكراتهم وكتبهم. فالأسير بيللو رغم تدرجه في مناصب قيادية مرموقة في جيش السلطان ورغم الثقة التي حظي بها من لدن السلطان وأبنائه من بعده، إلا أنه ابتدأ مذكراته بوصف الأعمال الوحشية للسلطان إسماعيل وعدد أنواع القتل والتعذيب التي يباشرها بنفسه ويجد –حسب زعمه– في بعضها المتعة والسرور. كما وصف مزاج السلطان بأنه متقلب دموي متوحش قاتل. أحيانًا بالسيف وأخرى بالخنق وثالثة بالتعليق بالأرجل(٢). عرض بيللو تلك الأعمال، المبالغ فيها، بأسلوب سيء جدًا يهدف من خلاله استثارة الرأي العام الأوربي عامة والإنجليزي خاصة. ولا يقل عنه في إثارة الرأي العام في أوربا قنصل فرنسا إيستيل في تقريره الذي كتبه عن رحلته من مدينة سلا إلى مكناس في ٥ مايو ١٦٩٨م لمقابلة السلطان إسماعيل. فيصور المشهد على أنه مغامرة خطيرة غير مأمونة العواقب وأن كل من قابله من المغاربة أو النصارى أو القساوسة، قد حذروه من أن السلطان إنما استدعاه ليقتله. وأظهر للجميع في تقريره بأنه الشجاع الذي لا يخاف من مصير كهذا وأنه يتمنى أن يموت نصرانيًا. ويمضي في وصف إجراءات مقابلته للسلطان والمحادثات بينهما ويظهر نفسه الجريء البطل الذي يعرف كيف يتصرف دون خوف أو خشية من بطش السلطان. وفي النهاية يجد معاملة السلطان لطيفة وراقية وإنسانية يمتدح فيها السلطان نصرانيته ولا يناله منه مكروه(٣).

(١) Ibid, pp.131-132.
(٢) T. Pellow: Op. Cit, pp.78, 79.
(٣) Mémoire de J. B. ESTELLE, pp.604-609.

هذا دليل قاطع على أن التهيؤات والتصورات التي كتبها إيستيل إلى حكومته وصور بها سلطان المغرب بأنه ظالم متغطرس قاتل متوحش وأن شعب المغرب لا يقل عن سلطانه وحشية وبربرية. كل ذلك عارٍ من الصحة وكتبه إيستيل من أجل الإثارة فقط.

ورغم أن إيستيل لم يجد من سلطان المغرب إلا المعاملة الحسنة، إلا أنه لم يتردد في الإدعاء بأن السلطان قد ورث لأبنائه الخبث والمكر والشدة والبطش. لأنهم قتلوا أحد أصدقائه من اليهود المخلصين له وللتجار الفرنسيين الذين سيفقدون –كما يقول– بموت هذا اليهودي أشياء كثيرة(١).

أما جوزيف دوليون فقد تحدث بدوره عن مسألة العقوبات في عهد السلطان إسماعيل وأكد بأنه تحصل لأتفه الأسباب وهي أنواع: إما أن تكون بالغرامات أو مصادرة الممتلكات أو الإعدام. وركز كثيرًا على مسألة الإعدام التي لم يسلم منها على حد قوله –لا شريف ولا طريف ولا والٍ ولا حاكم مقاطعة ولا قائد ولا كائنًا من كان(٢). وهذا حكم عام غير دقيق فالاستثناءات كثيرة وقصص العفو والتسامح من السلطان أكثر، كما سنبين ذلك لاحقًا.

يرتبط الحديث عن القتل غالبًا بمسألة الأمن. وهذا ما لاحظه القس نيان ورفاقه عند تنقلهم بين المدن المغربية فهو يشيد بالأمن ويقول بأن السلطان تمكن من فرضه عن طريق عبيده. ويقول بأن عبدًا واحدًا يكفي لتأمين قرية ومجمع للبادية لدرجة أنه إذا تعرض هذا العبد للقتل من أهل قرية أو مجتمع للبادية فإن السلطان يقتلهم جميعًا أولادًا ونساءًا ورجالاً. ثم يسوق قصة تؤيد زعمه حين قتل مجموعة من القرى البدوية عبدًا للسلطان فأمر هذا الأخير بقتل ستين منهم وقطع رؤوسهم وإحضارها أمامه.

(١) Ibid, p.508.
(٢) J. de león: Op. Cit, pp.44-51.

وحينما وجد العدد ناقص واحدًا قطع رأس الذي أحضرها وأكمل الستين[١]. قصص خيالية يرويها هؤلاء المبعوثون يبالغون من خلالها لتحقيق مكاسب يسعون من أجلها.

كثيرة هي قصص القتل الناتجة عن غضب السلطان السريع والمفاجئ. فهذا بيللو يزعم بأن السلطان يخرج يستعرض أحيانًا ورمحه بيده. فإذا انتهى من استعراضه رماه في الهواء وإذا لم يتمكن حامل الرمح من تلقفه قبل أن يسقط في الأرض فإن السلطان يقتله. فهو يقتل أحيانًا دون أن يكون في نيته القتل. ثم يطلب العفو والصفح من المقتول بكل تواضع وأدب موضحًا بأنه ليس في نيته قتله وإنما قتله رب العالمين لأن أجله قد انتهى[٢].

هكذا ينقل هؤلاء الصورة مشوهة إلى حكوماتهم وشعوبهم ويستعدونهم ضد المغرب وحكومته جاعلين من أسراهم كبش فداء.

في التقرير الذي كتبه إيستيل في شهر أكتوبر من عام ١٦٩٨م ووجهه إلى السيد موربا Maurepas وكيل بونشرتران Ponchartrain في البحرية الفرنسية، خصصه للحديث عن السلطان إسماعيل ومملكته المغربية في جميع ما يتعلق بالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ونحو ذلك. وذكر بأن السلطان دموي وقاتل وسفاك لا يتردد في قتل الأبرياء لأتفه الأسباب وزعم بأنه خلال الست والعشرين سنة التي حكم فيه قتل بيده ستًا وثلاثين ألف نفس[٣].

هكذا يصل الخيال المغلف بالأهواء إلى تشويه السمعة ونقل معلومات خاطئة عارية من الصحة إلى الجانب الأوربي. وإلا كيف يتفق هذا مع ما يذكره بيللو بأنه لم يسمع بأن السلطان قتل سوى ثلاثة عبيد أحدهم أرتكب جريمة اللواط[٤].

(١) N. Néant: Op. Cit, p.675.
(٢) T. Pellow: Op. Cit, p.137.
(٣) Mémoire de J. B. ESTELLE, p.688.
(٤) T. Pellow: Op. Cit, p.136.

يسترسل هؤلاء المبعوثين بأحاديثهم الفظيعة عن أهوال القتل والتعذيب والتكبيل بالسلاسل وخاصة في جانب الأسرى ليستدروا عطف أممهم وشعوبهم فيغضوا الطرف عما يجري في أوربا بحق الأسرى المسلمين. فقنصل فرنسا إيستيل اعتاد باستمرار على وصف السلطان بالمستبد وعلى شعبه بالبرابرة الأوباش. يدعي هذا القنصل بأن السلطان حينما وجد أحد كلابه المفضلة قد مات اتهم أحد الأسرى بأنه قتله فأحضره ونزع عنه ثيابه ثم رماه على كلابه لتأكله. ثم توجه بعد ذلك إلى بقية الأسرى ووضع أرجلهم بالسلاسل وبدأ في تعذيبهم. وحين توسط لهم بعض القساوسة وطلبوا عفوه وافق بشرط أن يذهب أحدهم إلى إسبانيا للبحث له عن كلبين طيبين[١].

تتكرر هذه المشاهد مع آخرين يزعمون بأن أشهر صفات السلطان إسماعيل هي الجبروت والظلم والقتل وأن وحشيته قد ظهرت أكثر عندما تخلص من ابن أخيه الثائر عليه أحمد بن محرز، فقتل جميع الأسرى وعمل من أجسادهم جسرًا عبر من خلاله جنوده أحد الأنهار[٢].

روايات كلها تفيض بالحقد والكراهية ومحاولة الإثارة وتفتقر للمصداقية والدقة.

(١) Mémoire de J. B. ESTELLE, p.487.
(٢) T. Pellow: Op. Cit, p.131.

العفو والتسامح:

بالرغم من كل ما سبق استعراضه من صنوف التعذيب والقتل وما ذكر عن شدة السلطان إسماعيل وقسوته، إلا أن الأعمال الخيرية والمواقف الرحيمة وحبه للعدل والإنصاف وتطبيق أحكام الشريعة وإنصاف المظلوم. كلها كانت من الصفات التي شهد له بها هؤلاء الأسرى والمبعوثون الذين شوهوا صورته من قبل.

كان تركيز هؤلاء الأسرى والمبعوثين في تقاريرهم على معاناة الأسرى والمشقة التي يعانون منها في حياتهم اليومية. غير أنهم اعترفوا جميعًا بعدالة السلطان إسماعيل تجاه هذه الفئة بالذات. فعندما ما تحدث نيان عن معاناة الأسرى في ورش العمل والبناء في عاصمة السلطان مكناس صور المشهد وكأنه مليء بالاضطهاد والتعذيب والعمل الشاق والسب. وكان اعتماده في ذلك كله على السماع من الآخرين دون أن يشهد ذلك بنفسه. لكنه شهد في الوقت نفسه بأن السلطان كان يسمح للأسرى بالاحتفال بأعيادهم الدينية ويقدم لهم التسهيلات في العمل ويتسامح معهم[١]. كما يتحدث عن الأديرة الإسبانية الموجودة في مكناس لخدمة أولئك الأسرى ويتضح من خلال حديثه توفر جميع وسائل الراحة الجسدية والنفسية والروحية للأسرى العاملين في تلك المدينة. وأن الرهبان والأطباء والوعاظ يقومون بواجباتهم نحو هؤلاء خير قيام دون أن يكون هناك أي معوقات تذكر. ومثل هذا الدير يوجد آخر في مدينة سلا وثالث في تطوان[٢].

رغم كل ما ذكره إيستيل من أوصاف لا تليق بسلطان المغرب إلا أنه اعترف بأنه يعامل الأسرى العاملين لديه في البناء والورش أفضل من معاملته لمواطنيه. بينما يعامل النساء الأسيرات معاملة لطيفة وإنسانية. فإن كن متزوجات ومع أزواجهن خصص لهن سكنًا معهم. أما إذا لم يكن متزوجات فإن السلطان يحرص على

(١) Néant: Relation de La Merci, p.656.
(٢) Ibid, p.658.

تزويجهن من الأسرى، مبينًا بأنه من الأفضل للمرأة أن يكون لديها زوج وللعامل الأسير أن يكون لديه زوجة. ويضيف إيستيل بخبث بأن مقصد السلطان من ذلك أن تنجب هؤلاء النسوة أولادًا يصبحون مسلمين بعد ذلك. كما هي العادة عند هذا السلطان(١). الذي –كما يقول– منذ أن هبت عاصفة قوية جدًا في ٢٣ نوفمبر عام ١٦٩٣م على فاس ومكناس ودمرت العديد من المباني واقتلعت مئات الأشجار بما فيها أجزاء من قصر السلطان إسماعيل وبساتينه، فقد أصبح السلطان بعد ذلك لينًا عطوفًا متسامحًا في تعامله مع المسيحيين(٢). هكذا يعمد هذا الحاقد على السلطان إسماعيل إلى تجريده من معاني الرحمة والشفقة ويجعل العناية الإلهية هي السبب في تغير مواقفه.

عقد جوزيف دوليون في كتابه فصلاً عن العدالة في دولة السلطان إسماعيل وسجل خلاله كل ما عايشه أثناء أسره ومشاركته في سلاح المدفعية من مظاهر العدل عند السلطان وعند ولاته.

ومن ذلك ما ذكره عن عدل وإنصاف السلطان حين عمد إلى عقوبة أحد المواطنين. ويدعى الحارث لما ارتكبه من خطف بعض النساء وإخفائهن لديه، معتمدًا في ذلك على حماية أخته حليمة زوجة السلطان وشفاعتها له ولكن السلطان حينما علم بذلك أوقع فيه العقوبة المغلظة غير آبه بكونه أخ لزوجته(٣). ويسترسل جوزيف دو ليون في معرض حديثه عن العدالة بأنه إذا اشتكت قبيلة شيخها وكسبت القضية ضده أعطيت الحرية في اختيار الشيخ الذي تريده(٤).

كان السلطان إسماعيل يكره الظلم ويحارب أصحابه حتى ولو كانوا من المقربين إليه. أحد الأسرى المعاصرين للسلطان يشهد له بذلك حين ذكر بأن الأمير محمد

(١) Mémoire de J. B. ESTELLE, p.690.
(٢) Ibid, p.316.
(٣) J. de león: Op. Cit, p.29.
(٤) Ibid, p.47.

العالم بن السلطان المفضل لديه حينما كان يعيش في تافيلالت قبض على فتاتين وقتلهما. فخرجت أم هاتين الشابتين على وجه السرعة متجهة إلى مكناس وبدأت بالنياحة قرب قصر السلطان فأدخلها واستمع إلى شكواها. بالرغم من إدعاء المداهنين والمتملقين بأنها كاذبة. ثم سمح لها بالسكن داخل السرايا وأرسل سرًا أحد قادة القصر بصحبة عدد من الجنود لإحضار ابنه، وبحضور تلك المرأة أذاقه صنوف العذاب رغم تدخل بعض القادة(١).

هذه شهادة أسير قضى في الأسر قرابة عشرين عامًا لم تمنعه من إظهار عدالة السلطان. وهي تبين عدالة السلطان حتى مع أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه. ومثل هذه الروايات تساهم إلى حد كبير في التشكيك بالتهم التي وصف بها السلطان حول الظلم والطغيان والتسلط وحب الدماء، وهو ذاك الرجل الذي يخرج كل صباح يصلي ويعفر جبينه في التراب يسأل الله أن يعينه في تطبيق العدالة بين شعبه. ويوضح هذا الأسير في شهادته بأن سياسة السلطان القاسية مع مواطنيه كان الهدف منها مصلحة هؤلاء قبل كل شيء(٢).

آخر يتحدث عن كرم السلطان مع رجال الدين المسيحيين إذا وقعوا في الأسر حيث يحترمهم السلطان ويدع ملابسهم عليهم ويسمح لهم بالقيام بوظيفة وعظ الأسرى ولا يكلفهم بالمشاركة في الأعمال سواء كان هؤلاء في مكناس أو سلا أو تطوان أو طنجة أو غيرها من المدن. وهذا على العكس من ما يحصل في البلاد المسيحية حيث يعاملون رجال الدين المسلمين أسوء من غيرهم(٣). كما يمتدح معاملة السلطان للأسرى المتزوجين ويذكر بأن هدف السلطان من ذلك أن الأسير المتزوج بحاجة إلى الوقت للبحث عن قوت له ولأولاده(٤). ويمضي نيان في سرد المعاملة الطيبة من قبل

(١) Ibid, p.48.
(٢) Ibid, p.52.
(٣) Néant: Relation de La Merci, p.664.
(٤) Ibid, p.664.

السلطان للأسرى فيذكر بأنه في كل عام يتكرم بإعطاء كل أسير جلابية من نوع ضافٍ كناية عن رضاه عن أدائهم. ويسمح لكل أسير بالدفاع عن نفسه إذا تعرض لأذى من أحد بشرط أن يرتدي تلك الجلابية[١].

نموذج آخر من صور العفو يسوقه توماس بيللو في معرض حديثه عن غضب السلطان ووحشيته وأوامره بالإعدام. فيذكر بأن أحد الأسرى الإسبان العاملين في ورش البناء وكان ماهرًا في الرماية. وأخطأ الهدف ذات مرة فأصاب سرج فرس السلطان. فكان الجميع ينتظرون أشد العقوبات التي ستنزل به من قبل السلطان. غير أن هذا الأخير قدر أن ذلك سوء حظ منه وطلب منه بهدوء أن يلتحق بعمله مع زملائه المسيحيين، فما كان من هذا الإسباني إلا أن أسلم تقديرًا لعفو السلطان عنه والذي حينما علم بذلك عينه حاكمًا في إحدى المقاطعات[٢].

أكثر من أساء إلى السلطان إسماعيل ورعيته هو قنصل فرنسا في المغرب إيستيل الذي كانت تقاريره إلى حكومته تزخر بالشتائم والسب والتنقيص وتحريض حكومة فرنسا على فرض إرادتها ومحاصرة سواحل المغرب لتخليص الأسرى الفرنسيين من قبضة المغاربة. مع أن السلطان إسماعيل كان لطيفًا معه في كل المقابلات التي جرت بينهما. من ذلك مثلاً: مقابلته للسلطان في بداية عام ١٦٩٦م والمحادثات التي جرت بينهما ودعوة السلطان له للدخول في الإسلام وبالتالي حديثه المطول معه حول أفضلية أي من المسيحية أو الإسلام. ثم في النهاية عرض عليه السلطان أن يدفع له جميع تكاليف رحلته من سلا إلى مكناس والعودة إليها. ثم يطلب منه السلطان البقاء في مكناس لتفقد الأسرى الفرنسيين وتقديم الدعم المادي والمعنوي والعلاجي للمحتاج منهم[٣]. يشهد إيستيل للسلطان بهذا الكرم ومع ذلك يتهمه غالبًا بالبخل والشح. ويشهد له بالتسامح مع العلم بأن الفرنسيين يمنعون الأسرى المغاربة

(١) Ibid, p.665.
(٢) T. Pellow: Op. Cit, p.137.
(٣) Mémoire de J. B. ESTELLE, pp.390-396.

من مقابلة سفراء المغرب المكلفين ببحث شؤونهم.

تحدث إيستيل عن عدالة السلطان مع التجار الفرنسيين الثلاثة الذين ذهبوا إلى مكناس ليشتكوا للسلطان أمرًا ماليًا حصل لهم من أحد اليهود. فحقق السلطان لهم مرادهم[١].

ومع كل مظاهر العدالة التي طبقت في المغرب لصالح الفرنسيين إلا أن إيستيل استمر في تقاريره المسيئة للسلطان وحكومته. واعتاد أن يشتكي دومًا إلى الحكومة الفرنسية ويدعي بأن بعض قادة المغرب وبعض رؤساء البحرية يسيؤون له وللتجار الفرنسيين. كما حصل عندما رفع عبدالله عائشة قائد البحرية المغربية شكوى إلى والي مدينة سلا ضد إيستيل متهمًا إياه بأنه جاسوس، إلا أن الوالي حكم لصالح إيستيل وعاتب ابن عائشة.ومع تظلم ابن عائشة عند السلطان ومحاولة استصدار أمر طرد إيستيل من البلاد، إلا أن ذلك لم يتحقق له. ويشهد إيستيل بأن والي مدينة سلا قد أجرى العدالة لصالحه. ثم يذكر لحكومته أن هذا ما يحصل في هذه البلاد البربرية[٢].

تحدث جوزيف دوليون حديثًا منصفًا عن حياة الأسرى المسيحيين لدى بلاط السلطان إسماعيل وعن وسائل الراحة المتاحة لهم سواءً كانوا عزابًا أو متزوجين. وتحدث عن الأرامل ومن كان زوجها غائبًا عنها وذكر بأن الجميع يمكنون من العيش منفصلين عن الآخرين. وذكر بأن الأسرى في العموم لا ينقصهم أي شيء لأن السلطان لا يتركهم في حاجة أو نقص. كما أنهم يعيشون في سكنهم المخصص لهم حسب جنسياتهم وعلى كل مجموعة رئيس منهم. يحرص السلطان بنفسه على توفير الراحة لهم ويقف إلى جانبهم عندما يحصل خلاف بينهم وبين المسلمين. كما يستطيع الأسرى ممارسة شعائرهم الدينية دون مضايقة ويقيمون الاحتفالات الدينية المسيحية بكل حرية. كما يتم معالجة المرضى منهم في مصحات الآباء الفرنسيسكان الموجودة

(١) Ibid, p.417.
(٢) Ibid, pp.433-434.

في مقر سكن الأسرى. بل إن حارس الدير الموجود في مكناس قد عقد صداقة مع السلطان إسماعيل لدرجة أنه يلبي له مطالبه بما في ذلك العفو عن من حكم عليه بالإعدام حتى ولو كان السلطان بحالة غضب(١).

هذه شهادة دامغة من أسير عاش مع الأسرى وشاهد معاملة السلطان لهم وهي تكفي لدحض شبهات وافتراءات ادعاها آخرون بحق هؤلاء الأسرى.

يؤكد أحد رجال الدين الفرنسيين حسن معاملة السلطان للأسرى. فيذكر بأن كل جنسية منهم يوضعون معًا ولهم منهم خدم يبقون في سكنهم دون عمل، يقومون بإعداد طعامهم وخدمتهم ولهم ممرضين لمعالجتهم من الأمراض(٢). وفي المقابلة الأولى للبعثة الدينية الفرنسية مع السلطان في عام ١٧٠٤م، كان حريصًا على توفير الراحة لهم في تنقلاتهم وسكنهم واعتذر لهم عن السكن في حي اليهود قائلاً بأن النصارى لا يحبون اليهود وعرض عليهم سكنًا خاصًا أكثر راحة إذا رغبوا وقدم لهم كل التسهيلات ووفر لهم كل ما يلزم من مأكل ومشرب(٣).

يؤكد إيستيل في تقاريره على مسألة تشبث السلطان بالأسرى إذا كان فيهم عنصر نسائي وأن السلطان عنده رغبة شديدة في إدخالهن ضمن حريمه للتسري بهن. وساق هذه الأخبار في تقرير كتبه في سلا يتضمن أحداث المغرب خلال الفترة من ٢١ إبريل إلى ٢٩ سبتمبر ١٦٩٥م. ضمنه قصصًا واهية عن تلاعب السلطان بمشاعر بعض العائلات المسيحية من الأسرى الإسبان الذين طالبوا بحرية ابنتهم البالغة من العمر عشر سنوات ورغم الشروط التي اشترطها السلطان ووفائهم بها إلا أن ذلك لم يتحقق لهم(٤). ويتضح من خلال تلك القصة أن الهدف منها الإثارة وشد الانتباه للضغط على المغرب وحكومته من الحكومات الأوربية.

(١) J. de león: Op. Cit, pp.70-71.
(٢) N. Néant: Relation de La Merci, p.665.
(٣) Ibid, p.649-655.
(٤) Mémoire de J. B. ESTELLE, p.351.

ويستمر إيستيل في تقريره بتشويه سمعة قراصنة المغرب والسلطان من خلال قوله بأنه في ٢٥ من أغسطس عام ١٦٩٥م وصل إلى مدينة سلا آخر قراصنتها ومعه غنيمة برتغالية مكونة من تسعة عشر رجلاً وفتاتين إحداهما تبلغ من العمر إثنا عشر عامًا والأخرى أربعًا وعشرين سنة. بصحبة والدهما وأخوهما. ثم يصف الفرحة التي عمت المدينة بسبب وجود هاتين الفتاتين وقد تم نقلهما بشكل سريع إلى مكناس وكان السلطان متأهبًا لاستقبالهما كالأسد الهادر الجائع لالتهامها. ومنذ أن رآهما أمر باستبدال ملابسهما بالرغم من بكائهما وصراخهما ثم أدخلهما إلى قصره ليجبرهما هذا السلطان السافل على أن يكونا من إمائه[١]. هكذا يريد إيستيل إظهار حقده وكراهيته للسلطان إسماعيل أمام الرأي العام الفرنسي بوصفه له بأوصاف لا تليق به وتشبيهه له بالأسد الهصور المتلهف لافتراس فريسته. وكل هذه الأخبار ملفقة وغير ثابتة. فإحدى الفتاتين المذكورتين في الخبر زوجها السلطان لأحد الأسرى من أبناء جنسها. وكان السلطان في الغالب يزوج الفتيات من الأسرى. كما تثبت رواية إيستيل لذلك في حديثه عن فتاة عمرها خمسة عشر عامًا بصحبة عائلتها وقعت في الأسر فدعاها السلطان إلى الإسلام ولكنها لم تقبل فزوجها من أحد الرجال المسيحيين المقربين إليه في عمل المدفعية[٢]. ولا يخفي إيستيل فرحه بذلك وارتياحه من أنها لو لم تتزوج بهذا المسيحي لأصبحت مسلمة وهذا ما يغيضه.

يقول إيستيل بأن سلطان المغرب غير جاد في مفاوضاته مع الأوربيين من أجل إطلاق سراح الأسرى وأنه يهدف فقط من وراء ذلك إلى الاستخفاف بهم للحصول على الهدايا التي يقدمها له السفراء والمبعوثون[٣].

وهذا إدعاء باطل من جانب قنصل فرنسا بحق السلطان إسماعيل الذي وصفه بالسفاح القاتل وشعبه بالهمجي البربري. فالسلطان تمكن من عقد معاهدات سلام مع

(١) Ibid, p.354.
(٢) Ibid, p.518.
(٣) Ibid, p.486.

إسبانيا والبرتغال وهولندا وبريطانيا ومعظم الدول وتم له تبادل الأسرى معهم دون عقبات. أما فرنسا فلأن الفرنسيين لا يريدون عودة الأسرى المغاربة حتى لا تتعطل بحريتهم عن التجديف وظلوا يماطلون وهم الذين لم يكونوا جادين في مسألة تحرير الأسرى.

شهادات كثيرة تبرئ ساحة السلطان مما وصف به من عنف وشره. فعندما تعطلت إحدى السفن الإسبانية المتجهة إلى الهند قبالة سواحل مدينة مزاكان (الجديدة) وسقط جميع أفراد طاقمها أسرى في يد سكان تلك المنطقة ثم نقلوا جميعًا إلى قائد منطقة مراكش فجردوا من ملابسهم بما فيهم قائدهم. ثم نقلوا إلى مكناس. وعندما علم السلطان بأن فيهم شخصًا صاحب مقام عالٍ وعومل تلك المعاملة قام بتأديب جميع المسؤولين عن ذلك التصرف وعاقبهم عقابًا شديدًا وصادر أملاكهم(١). هذه شهادة يظهر من خلالها عدل السلطان وإنصافه. وعلى النقيض منها يتحدث إيستيل عن مجموعة من طاقم سفينة فرنسية غرقت قبالة ساحل مدينة سلا ويزعم بأنه آواهم وهيأ لهم السكن المناسب وسعى في ترحيلهم إلى الأراضي المسيحية حتى يبعدهم –كما يقول– عن هذا البلد السيء المفتقر للعدالة(٢). نسي وتناسى إيستيل كل ما سبق وأن حصل عليه شخصيًا من عدل ومعاملة حسنة من جانب السلطان وبعض قادته.

شهادات منصفة:

بعد عرض نماذج مما ذكره بعض الأسرى والمبعوثين عن السلطان إسماعيل وقادته وشعبه والذي في مجمله لم يكن منصفًا ولم يتجرد مؤلفوه من أهوائهم، رغم أن البعض منهم حاول أن يظهر طرفًا من الجوانب الإيجابية للسلطان إلا أنهم كانوا – غالبًا– يفسدون ذلك باتهاماتهم الباطلة.

إن روح العصر الذي حكم فيه السلطان إسماعيل كانت تتطلب الشدة والقسوة

(١) J. de león: Op. Cit, p.48.
(٢) Mémoire de J. B. ESTELLE, p.486.

في الكثير من المواقف. وليس السلطان إسماعيل وحده هو الذي لجأ إلى هذا السلوك لمعالجة الأوضاع في بلاده، بل إن الكثير من معاصريه قد شابهوه أو فاقوه صرامة وشدة.

ولسنا بذلك نبرئ ساحة السلطان من الظلم أو الخطأ، بقدر ما سنحاول عرض بعض الشهادات المنصفة التي تثبت أن ما نسب إليه من قسوة وشدة وتعطش للدماء لم يكن كله صحيحًا وأنه كان بتأثير من العواطف وعدم التجرد.

إن الكتابات الأوربية عن التاريخ المغربي كان أصحابها لا يتورعون إلا نادرًا عن الانسياق لأهوائهم وعن تشويه الحقائق لإرضاء ما يشعرون به من تفوق واستعلاء نظرًا للتعصب الديني الشديد الذي لم تخف وطأته شيئًا ما إلا بعد الثورة الفرنسية. إن المعلومات التي دونتها أقلام أولئك المؤرخين المتعصبين عن المغرب وتاريخه، تنم عن جهلهم التام للثقافة الإسلامية[١].

لقد نشطت البحرية كثيرًا في عهد السلطان إسماعيل، وكثر معها عدد ا لأسرى الأوربيين الذين علقت بذاكرتهم ذكريات سيئة اختلطت ببعض الأحقاد. وكل من عاد إلى وطنه منهم أو حصل على حريته عزم على أن يصف بشيء من المبالغة، المعاناة التي كابدها في الوقت الذي كان الفكر الأوربي فيه مشحونًا باتهام السلطان إسماعيل بالوحشية والقسوة[٢].

لعل أكثر من تصدي للمزاعم المغلوطة عن السلطان وحكومته هو الكومت هنري دوكاستري Comte de Castries الذي فند العديد من المزاعم ودافع عن السلطان إسماعيل وخاصة الاتهامات التي وجهت إليه بأنه كان سفاحًا لا يمارس الدين إلا نفاقًا، وعزى ذلك كله إلى جهل المؤلفين الأوربيين وخاصة المبعوثين

(١) ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧م، ص٦٧.

(٢) Mohammed EL-FASI: "Numéro spécial publié á l'occasion du troisiéme centenaire de L'accession au trône de Moulay Ismaél", Hesp. T., 1962, p.6.

والسفراء والأسرى بحقيقة العقلية الإسلامية. فهو لا يتفق مع ما ردده أولئك في تقاريرهم عن حب السلطان إسماعيل لسفك الدماء وأنه لا يتجرأ عن ذلك ويمارسه مع مواطنيه والعبيد والأسرى المسيحيين وحتى عائلته. وأشاردو كاستري إلى أن الأرقام التي ذكرها هؤلاء المؤلفون الأوربيون حول عدد قتلى السلطان، تحتاج إلى وقفة ولا تقبل على علاتها. وأردف مؤكدًا بأن الرقم ٣٦٠٠٠ قتيل بيد السلطان هو من الأساطير المضحكة. كما عزى بعض الاغتيالات التي عمد إليها السلطان إلى كونها من أعمال العدالة وتثبيت الأمن والاستقرار في بلاده وقطع دابر اللصوص وقطاع الطرق حتى أصبح الجميع يسيرون في مملكته بكل أمن وطمأنينة(١).

إن طول مدة حكم السلطان إسماعيل لم تعدم قيام بعض الثورات وخاصة من جانب أولاده، الأمر الذي دعاه إلى استعمال القوة الضاربة حتى ولو كان ذلك ضد أقرب الناس إليه (أولاده).

يقول دو كاستري لا نجد ذكرًا لقسوته عند المؤرخين العرب، ويبقى الذين أمدونا بمعلومات غير خاضعة لأي روح نقدية، هي تقارير البعثات الرسمية التي وصلت إلى المغرب آنذاك. وقد قبل بعض المؤرخين الغربيين جميع ما ورد من أساطير في كتاباتهم وأظهروا السلطان إسماعيل كوحش دموي. في حين أنصفه البعض مؤكدين بأن شراسة السلطان ما هي إلا مراعاة لمقتضى العصر الذي عاش فيه وإذا كان قد تجاوز بها الآخرين فلأنه قد تجاوزهم بالقوة. كما أن جهل معظم المؤلفين الأوربيين بروح العصر والوسط الذي كان يعيشه السلطان جعلهم يصدرون الحكم الدموي عليه. وهو السلطان الذي شهد له البعض منهم بالورع والتقوى والتدين. أما أولئك الذين اتهموه بالنفاق الديني فكانوا لا يعرفون تمامًا العقلية الإسلامية(٢).

(١) Le Comte Henri de Castries: Moulay Ismail et Jacques II. Une apologie de l'Islam par un sultan de Maroc, Ernest Leroux, Paris, 1903, pp.15-19

(٢) Ibid, pp.23-32.

الخاتمـــــة:

تركزت معظم كتابات وتقارير الأسرى والمبعوثين الأجانب إلى بلاط السلطان إسماعيل، على إبراز جانب العنف والشدة والقتل والتعذيب بحق الأسرى والمواطنين. وتميزت تقارير بعض القناصل بالتطرف والمبالغة وتشويه الحقائق وتأليب الرأي العام الأوربي على المغرب وحكومته.

ظهر من خلال كتابات هؤلاء الأجانب حرصهم على إبراز جانب الخيال في رواياتهم وقصصهم لكي يثيروا بذلك شوق مواطنيهم إلى قراءة ما كتبوه. كما امتلأت كتاباتهم بالمبالغات في تفسير بعض الحقائق والوقائع. كما ظهر جليًا عند البعض منهم سوء النية ضد بلد إسلامي عربي عن طريق بث الدعاية المغرضة قصد تشويه سمعته بالتركيز على سوء معاملة الأسرى الأوربيين. واتضح أيضًا من خلال تلك الكتابات قصور معرفة وفهم الأوربيين ببلاد المغرب وبالعادات والتقاليد الإسلامية. لذلك جاءت كتاباتهم مشوهة وغير نزيهة وعمد البعض منهم إلى إخفاء الحقائق.

لا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أن كل ما كتبه أولئك الأوربيون بعيد عن الحقيقة والواقع. وإنما تضمنت كتاباتهم أيضًا شهادات حق أنصفت السلطان إسماعيل والمجتمع المغربي. وأظهرت الجانب الحقيقي والإيجابي لتعامل السلطان وبالذات مع الأسرى الأوربيين.

Abstract:

During the reign of Sultan Isma'il (1672- 1727), piracy got revived which caused the fall of many captives who spent some times in the Maghreb. Those captives and emissaries wrote some reports and notes on the history of the Maghreb, their suffering in captivity and the negotiations for their release. Among them: the Spanish captive joseph de leon, the English captive Thomas pellow, the French counsel in the Maghreb J. B. Estelle, and the French father le pere Nolasque Neant.

However, their writings were not all fair, since most of it was doctored information either on purpose or because of ignorance. At the same time, emerged other writings which were distinguished by neutrality and fairness.